ولماذا هنا ﴿أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ دون «أقول عن الله»؟ «على» هنا تعني العهدة، وقول الرسول رسالة دون أصالة ليس إلّا على عهدة الله وبعهد الله، كما و«على» في ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ﴾ هي للحيطة والتحليق فـ «على» هو الحقيق دون «عن» حسب متواتر النص على مدار الزمن القرآني السامي.

و﴿حَقِيقٌ﴾ هنا حق ثابت لا حِوَل عنه إذ لا يحق لرسول أن يقول على الله إلّا الحق ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

ذلك وكما في الأصل العبراني من التوراة.

ذلك، والرسالة الربانية إلى أمثال فرعون وملإه تعني - أول ما تعني - إبطال كلِّ شرعة مدّعاة لكلِّ طاغوت يحكم محادّاً لشرعة الله، تبعيداً لهم عن تعبيد الناس إلى عبودية الله.

وإعلان الربوبية الوحيدة غير الوهيدة لله وحده، إنه إعلان تحرير الإنسان عن عبودية أمثاله وكلّ معبود من دون الله.

ولأن هذه الدعوة تحمل قلب نظام الحكم الفرعوني، لذلك يطالب موسى بكلِّ مهانة وإهانة وإحالة أن يأتي بآية إن جاء بها، زاعماً أنه كاذب حيث أخذته العزة بالإثم، فلا يستقبل أي دعوى تناحر فرعنته وطغيانه، إلّا بكل فرعنة ورعونة:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ في رسالتك المدّعاة المِدعاة ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ أمامنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهنا ﴿كُنتَ﴾ قبل ﴿جِئْتَ﴾ تعني إحالة هذه الكينونة بعمقها، ثم ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ تهديد عتيد إن لم يأت بها فهو - إذاً - من الكاذبين.

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ عجالة دون إجالة، عساه يهتدي بإجالة النظر في هذه الآية ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ كونه ثعباناً حقيقياً دون أن يسحر أعين الناس فيروا العصا ثعباناً، ومن كونه مبيناً أنه هدّد فرعون بصرحه لحدّ لمس العذاب حينه ففلّ منه خائفاً ذَعِراً[١].

ولا تعارض بين قلب العصا هنا ثعباناً مبيناً، وقلبها ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[٢] حيث ﴿رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾[٣] لاختلاف الموقفين، فالحالة الثانية هي ليلة الطور لما رأى من جانب الطور ناراً، والأولى هي عند فرعون.

ثم والطنطنة الغوغاء في قولة استحالة المعجزات يحلّها تقدّم العلم أن العناصر متشابهة في الجزئيات والذرات، وإنما الاختلاف في فواصل وعديد الذرات، فلخالق الذرات أن يبدل فواصلها وعديدها قفزة طرفة عين، وذلك سرّ الإعجاز أن ذلك التفاعل الذي يحتاج في تبدل عنصر إلى آخر إلى آلافات من السنين، يحصل بالقدرة غير المحدودة الربانية في طرفة عين.

ثم زود آيته تلك بأخرى، متصلة به بعد الأولى المنفصلة عنه، إتماماً للحجة وإنارة للمحجة، كيلا يقال إن ثعبان العصى ليس من إلقائه، بل هو صدفة عمياء، وأما يده فلا يظل عليها من ظلال ذلك الضلال: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ

(١) نور الثقلين ٢: ٥٤ في تفسير العياشي عن عاصم بن المصري رفعه - وذكر قصة مواجهة موسى فرعون إلى أن قال: - فألقى عصاه وكان له شفتان فإذا هي حية وقد وقع إحدى الشفتين في الأرض والشفة الأخرى في أعلى القبة، قال فنظر فرعون في جوفها وهي تلتهب نيراناً قال: وأهوت إليه فأحدث وصاح: يا موسى خذها.

(٢) سورة طه، الآية: ٢٠.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٠.

إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾[١] - ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾[٢].

وهنا في ظلال هاتين الآيتين خرس فرعون متخوفاً ذاعراً ما يدري من أين إلى أين، ولذلك يتكلم ملأه تثبيتاً له وتشجيعاً إياه وكما تفعله الهوامش الملكية بالملوك:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾:

هنا العصب الحساس يبرز بكلِّ كيد وميد مضلّلاً من مضلّلي الملإ، يخاطبون أنفسهم وآخرين، بمن يرأسهم وهو فرعون، ابتداءً بتزييف موقف موسى من آيته الكبرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ثم وما عليه في سحره إذا كان في خدمة فرعون، ولكنه ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ إخراجاً من السلطة الفرعونية ملكاً وملكاً فيجعلكم لا شيء بعد أن كنتم كل شيء.

فلو كان ما جاء به آية ربانية صادقة ما كان خطراً ذلك الخطر، أم لو كان يريد أن يخرجكم من أرضكم دون آية ولا سحر فكذلك الأمر، ولكنه جامع بين الأمرين الأمرَّين، فإنه بسحره يريد قلب النظام وهذا ما لا يقبله أي مواطن فضلاً عن الملك وأصحاب السمو الملكي، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ نا، نحن الذين نعرف صالح أمر الحكم من طالحه.

هنا - بعد ما حصل فرعون على هذا الرأي - ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾[٣] فقد تشاوروا أولاً: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن

(١) سورة طه، الآية: ٢٢.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٢.
(٣) سورة طه، الآيتان: ٥٧، ٥٨.

﴿يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾[1] ثم عرضوا عليه حصالة هذا الرأي ثم ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا . . .﴾.

وهكذا أدرك فرعون وملأه خطوة هذه الدعوة التوحيدية وكما يدركها كافة الطواغيت المحادّين المشاقين الله، وكما قيل لرسول الله ﷺ حين أخذ يدعو إلى شهادة أن لا إله إلّا الله: «هذا أمر تكرهه الملوك»! و«إذن تحاربك العرب والعجم» حيث القائل عرف معنى لغة التوحيد أنها ثورة على الحاكمين بغير شرعة الله، الطاغين على عباد الله، فإن لتلك الشهادة الحقة جدّيتها وفاعليتها، وطبيعة الحال قاضية ألّا ملاءمة بين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وألوهة غير الله من آلهة الأرض والسماء.

فلذلك ينبري الملأ من قوم فرعون، الأخصائيون في تدبير أمور الملك قائلين ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ إخراجاً لكم عن كيانكم وعرضِكم، وقد حسم الموقف عجالة أنهم:

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾:

﴿. . . وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾[2]

فالقصد من ﴿سَحَّارٍ﴾ هنا هو «سحار» ويلمح له ﴿عَلِيمٍ﴾ وهنا يشير عليه ملأه المتأمرون، بإمهالهما حتى حين ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ المصرية ﴿حَٰشِرِينَ﴾: جامعين ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ دون مجاهيلهم أو سقاطهم.

وهنا ﴿أَرْجِهْ﴾ أمهله، دون «أقتل - أو - أسجن» مما يدل على أن الطاغية كان أعدل من هؤلاء الطغاة الذي لا يمهلون مناوئيهم، حكماً بالإعدام أو السجن دون إمهال لمناورة!.

ويُروى أن عديد هؤلاء السحرة بين سبعين شخصاً إلى ثمانين ألف

(١) سورة طه، الآيتان: ٦٢، ٦٣.
(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

وبينهما متوسطات[١]، ولقد كانت أرض مصر تموج بالكهنة الساحرين في شتى المعابد الكهنوتية، يديرون أمورهم، ويدبرون، بكلِّ سحر ومكيدة، إذ ما كانوا يملكون حقائق الأمر الذي به يحكمون.

وهكذا يقترن السحر والكهانة وسدانة الآلهة في كافة الوثنيات على مدار تاريخها، وفرعون هذا بما يحمل من كلِّ فرعنة وطغيان، لقد كان في إرجائه موسى وأخاه أقل طغياناً من الطواغيت المتحضرة في القرن العشرين في مواجهة الدعاة إلى رب العالمين.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

لقد استغلوا فرصة فريصة لهم فريسة، حيث يحتاجهم فرعون في هذه الغائلة المجتاحة لعرشه وملكه، فتطلبوا إليه أجراً متميزاً عن سائر الأجر في الحالات العادية، فوعدهم ذلك الأجر وزيادة ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى البلاط الملكي أكثر مما كنتم من ذي قبل.

وهم على أية حال عملاء محترفون، يحترفون السحر كما الكهانة على سواء، والأجر هو هدف الاحتراف سواء في هذا أم في ذلك، وهنا يعدهم الطاغية أجراً أكثر من المأمول المعمول هو القربى منه زيادة في الإغراء، وهم كلهم جاهلون ذلك الموقف أنه موقف الآية الربانية التي لا يعالجها أي أجر وتقريب وإغراء.

وهنا ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ إخباراً دون إنشاء الاستدعاء، مما يلمح بموقفهم المستعلي على فرعون لفاقته إليهم، فقد فرضوا عليه في صيغة الإخبار الذي هو آكد من الإنشاء.

(١) وهي تسعمائة - اثني عشر ألفاً - خمسة عشر ألفاً - سبعة عشر ألفاً - تسعة عشر ألفاً - ثلاثون ألفاً - وسبعون ألفاً.

إذاً فهو إنشاء في صيغة الإخبار وكما الإنشاء في الشعراء: «أئن لنا لأجراً». . . ، أم وهو إنشاء حذفت أداته تلميحاً لأكيد الإنشاء إذ هو بصيغة الإخبار.

﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾﴾:

هنا يخيّر موسى بين تقدّمه في إلقائه وتأخره كتحد جاهر في ذلك التخيير التحيير، على تأدب ظاهر، وهو يرجح تأخره عنهم لكي يأتوا بكلِّ ما لديهم ثم يجتثه بأسره حيث يثق بنفسه كلّ الثقة مستهيناً بتحديهم، كما هم كانوا واثقين لا يفرقون بين إلقائهم أولاً وإلقائه، ولو أنه تقدم، ما كان هناك ظرف لما تقدمه أن يلقف ما يأفكون، وهذه تكتيكة لصالح الحوار أن يتطلب صاحب الحق أن يتقدم محاورة بما عنده على البساط حتى يسهل له القضاء عليه، تهديماً بكل صرحه، وفصماً لكلّ طرحه، وحسماً له عن بكرته، فلذلك استهان بتحدّيهم بكلمة واحدة تبدو فيها قلة مبالاته بهم:

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ﴾ ما عندكم من السحر ﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ دون عقولهم وقلوبهم العارفة أنها صورة دون حقيقة وسيرة ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ طلباً لرهبتهم وهم لا يرهبون إلّا ظاهرياً ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ ما أعظمه بين مختلف ألوان السحر لحدّ ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[1] فما يصنع ساحر واحد مهما كان عظيماً أمام سحر هؤلاء العظماء من سحرة البلاد.؟!

فأهم فاعليات السحر أن يسحر أعين الناس ويسترهبهم في المعاينة دون أي واقع وراء سحر الأعين، وذلك من الفوارق العظيمة بين السحر والآية الربانية، ولو استطاع ساحر أن يقلب واقعاً إلى آخر بسحرة لكانت السحرة

(١) سورة الشعراء، الآية: ٤٤.

المهرة الفرعونية تقلب التراب ذهباً دون طلب لأجر من فرعون، أم ويقلبوا سلطان فرعون إلى سلطانهم فيتركوا عبوديته إلى حريتهم أنفسهم، وقد أتينا بقول فصل حول الفوارق بين السحر والآية المعجزة في البقرة فراجع.

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ إلغاء لما ألقوا من حبالهم وعصيهم التي سحرت أعين الناس ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾: أكلاً سريعاً حاذقاً خارقاً ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ دونما رجع أو رجيع، مما يؤكد أنها آية ربانية رسولية بعيدة عن حقل السحر، حيث السحر يخيّل - فقط - للأبصار، والآية يحقق الحق للبصائر.

ذلك، وحين تتغلب عصا موسى - وهي أدنى من آية القرآن بكثير - على ذلك السحر العظيم - وهو أعظم من أي سحر على الإطلاق - أفلا يتغلب القرآن على أي سحر؟

أجل وكما يُروى أن قراءة مائة آية من أيّ القرآن شئت تبطل أي سحر كان وأيان!.

ولقد كانت هذه جيئة فجيعة ومفاجئة مذهلة غير منتظرة للسحرة، مما قلبهم ظهر بطن فما ملكوا أنفسهم إلّا أن ألقوا ساجدين:

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

أجل، وإن الباطل يتنفس قليلاً ثم يتنفش، ويسحر - فقط - العيون، وهو سحر عظيم، يتنفش كالقنفذ وينطفئ كشعلة الهشيم تذروه الرياح وكان الله على كلِّ شيء مقتدراً.

أجل ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ موقعة الباهر في ذلك المسرح العظيم أمام سحر عظيم ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟﴾ هم أولاء الفرعونيون ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ويأملون انكماشاً بعد الزهو الذي سحر المليّون وبهر أصحاب العيون ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ أمام

الجماهير المحشورة المحتشدة ﴿وَٱنقَلَبُواْ﴾ إلى فرعون وعن حالتهم تلك الطاغية الباغية ﴿صَٰغِرِينَ﴾: ذليلين، فأصبحوا صفر الكيان أمام هذه الآية الربانية العظيمة، بكلِّ صغار وهزيمة، وقد حسم الموقف هنا:

﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

وتراهم من الذي ألغاهم فألقاهم ساجدين لرب العالمين حيث النص «أُلقي» مجهولاً دون «ألقوا أنفسهم»؟.

إنه هيبة الموقف الحق الباهر إذ عرفوا أنه ليس مما ألقوه، فألغاه موسى بما ألقاه، فلم يتمالكوا أنفسهم إلّا تساقطاً على الأرض سجّداً لله، حيث الحق قد لمس عواطفهم ومس شغاف قلوبهم، هزة مفاجئة أزالت عنهم كلّ ركامة عاشوها من ذي قبل، فتحولوا بكلِّ كيانهم إلى ﴿سَٰجِدِينَ﴾ ونطقت ألسنتهم كلمة الحق التي كانوا لها ناكرين فـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وإنها صولة الحق الباهر في أعماق الضمائر والمشاعر، فالسحرة المهرة هم أعلم الناس بواقع فنّهم غير الواقع ومدى ما بالإمكان أن يبلغه من مبلغه، وهم - أيضاً - أعرف الناس بالحق الذي جاء به موسى، والعالم في فنه هو أكثر الناس استعداد لتقبل الحق، وكما نرى السحرة منقلبين من التحدي السافر الطليق إلى التسليم الظاهر الطليق الحليق، ما لا يزعزعه أي تهديد بليغ حميق.

ولكي لا يخيل إلى الطاغية أنهم يعنونه بما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] واصفوه بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ وهنا ينبري فرعون الطاغية بتهديد شديد على السحرة الساجدين:

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

ويْكأن الإيمان أيضاً كسائر الأمور بحاجة إلى إذن؟ وهو أمر قلبي! فلأن ذلك البليد الطاغي هو الرب الأعلى بزعمه فلتكن أزمة القلوب طراً بيده كما بيده سائر الأزمة.

هنا ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ تنديداً بنفس الإيمان، وفي الشعراء «آمنتم له» تنديداً بشاكلة الإيمان، أنه ليس إلّا له ولصالحه، حسب المدبّر المقرر بينكم من مكر مكرتموه في المدينة.

وهنا يهرف بما يخرف أن ثعبان العصا ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ تسمية لآلية البينة الربانية سحراً لهدف قلب نظام الحكم، ولا يمكرون هكذا إلّا إذا كان موسى معلمهم في السحر، ومتى كان معهم حتى يعلمهم السحر وهم كانوا سحرة قبل ولاده؟ وحتى لو كان معهم فهو متعلم منهم لأكثر تقدير!.

ولأنه لمس منهم أنهم ليسوا ليغيروا مواقفهم بذلك التنديد أخذ في شديد التهديد: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ...﴾ وهو عقوبة كانت تجري بأعصى العصاة البغاة، ولو كان إيمانهم مكراً لكانوا يتركون موسى إلى فرعون تائبين، إذ لم تكن لموسى سلطة زمنية إلّا هذه الآية، فلو كانت سحراً لما كانوا يظلّون معه فيذلون!.

فذلك الصمود رغم ذلك التهديد - وهم مهرة الفن - دليل قاطع لا مردّ

(١) سورة الشعراء، الآية: ٤٩.

له أنهم أثبتوا دون ريبة أن الحق مع موسى الرسول، فلا مردّ لإيمانه به وله ولا تحويل، ولكن الطاغية ليس ليدرك كيف يتسرب النور إلى القلب فيقلبه من علواء السوداء إلى علياءه البيضاء، وهو يحسب القلب قالباً يتقلب بتقليبه ويتألب بتأليه، وهو بين أصبعي الرحمن يقلبه كيف يشاء.

فيا ويلاه لفرعون صاحب العرش الروحي! والزمني، أن ينفلت من سلطة الكهنة السحرة الذين هم سناد الناس في التسليم لفرعنته، فماذا يصنع إذاً بالناس ولا حراس هنا بعد عليهم لصالحه ولا اكتراس لأساس.

ذلك ومن دأب الفراعنة الدائب أنهم يواجهون أندادهم بالتنكيل والتعذيب بعد ما كلّ دليلهم وعلّ كليلهم فهم مفضوحون، وهنا اليد السماوية تكسر اليد الأرضية حيث تنتصر في المسرح المصرع العقيدة الصالحة على كلِّ زخرفات الحياة، احتقاراً للفناء الزائل البواء إلى جوار الخلود المقيم البقاء.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾:

﴿مُنقَلِبُونَ﴾ انقلاباً محتوماً مختوماً عن أي انغلاب، لا يقلّبنا عن ذلك الإيمان أي عامل قاس بأي مراس واكتراس، حيث إن صاحب الإيمان السليم لا يفزع ولا يتزعزع أو يخضع ويخنع.

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾:

فنغمة النقمة ليست لمكر مكرناه، إنما هي ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ فلا إيمان إلّا به، ولا ملجأ إلّا إليه ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ يشملنا ويغطّي علينا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ صَلْباً أم سواه.

وهنا يقف الطغيان حائراً ذعراً أمام صامد الإيمان، أمام كامل الوعي